خير ما نُصدَر به نصوص الأدب العباسي كلمة الجاحظ، صاحب الطريقة الثانية في الكتابة العربية، معلم العقل والأدب، إمام أهل البيان، وشيخ علماء الفصاحة في العصر العباسي حيث يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر، وقديماً ما تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما.

(*البيان والتبيين*، الجزء الأول، ص٣).

مقدمة

إذا كان الشعر قد حظي بكثير من الدراسات المعاصرة من العرب والمستشرقين فإن الدارسين على اختلاف مناهجهم لم يلتفتوا إلى النثر ونقده كثيراً. ولو جئنا نعدد الأبحاث التي تُعنى بالشعر العربي القديم ونقده لضاقت بنا الصفحات، وهذا ما أوجد خللاً في إظهار مكانة الحضارة العربية الإسلامية لأن الشخصية الحضارية للأمة العربية الإسلامية بأبعادها المعرفية تتجلى في النثر، كما تتجلى بأبعادها الجمالية في الشعر. ويمكن أن نعلل ذلك في طبيعة المنهاج والغاية، لأن النثر كما هو معروف وعر المسالك، صعب المرتقى.

ومما يعزز قيمة هذا النوع من الأدب، ويدفعنا إلى دراسته ما أشار إليه الدكتور عبد اللطيف عمران أستاذ الأدب العباسي بجامعة دمشق في مقدمة كتابه *المرجع في النثر الأدبي في العصر العباسي* هو أن بعض الباحثين المعاصرين اتخذوا مناهج جديدة في دراسة فنون النثر ونقده، تتصل بمعطيات الحداثة وما بعد الحداثة، تلك المعطيات التي تفرض نفسها وتستدعي حضورها الوطيد في حياتنا العامة يوماً بعد يوم، ويجعل البحث الذي يتجاهل منجزات البنيوية والتشريحية والتفكيكية وما يتصل بالنقد الجديد معيباً، ويسمه بالانقطاع عن الفكر النقدي المعاصر، إذ يزداد الإقبال اليوم على المزاوجة بين النص الأدبي القديم وما تقدمه المفهومات المعاصرة في الشعرية والأدبية والسردية، وما يتصل بمسافة التوتر وبوجهة النظر وبشعرية المحكي وبموت المؤلف وبالتناص.

وإن هذه الحقيقة وحدها هي التي دفعتنا دفعاً إلى دراسة هذا الموضوع فكان ذلك البحث الذي نقدمه الآن وهو في النثر العباسي – دراسة تحليلية – وعندما كنت معنياً بالاتجاهات الأدبية في العصر العباسي منذ زمن طويل، وأسند إليّ تدريسها بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بمشتي صادف ذلك هوى في نفسي، وجعلتها ميدان البحث الأصيل.

وقد سقنا هذه المقدمة القصيرة لتحديد إطار البحث الذي نحن بصدده، لتحديده زمانياً ومكانياً وبيئياً.

ويقع الكتاب في مقدمة وفصول ستة، أما المقدمة فقد اشتملت على بيان أهمية الموضوع وأسباب اختياره ثم خطة البحث، وفي نهايتها ذكر لأهم المناهج المتداولة المعاصرة في تحليل النصوص.

وفي الفصل الأول بيان لموضوع النثر وأنواعه، بشيء من التفصيل، كالخطابة والرسالة الأدبية والقصة والمقامات كأهم أنواع النثر الأدبي.

وفي الفصل الثاني يتناول الكتاب قصتين ممتعتين إحداهما من عمرو بن بحر الجاحظ وهي

قصة قاضي البصرة مع الذباب، والأخرى قصة خالد بن عبد الله القسري مع الشاب السارق، قمت بشرحهما وتحليلهما.

وفي الفصل الثالث بيان لمجموعة متنوعة من المقامات بحيث يمكن استكشاف أنواع مختلفة من الجماليات الأدبية، وكانت الشواهد من مقامات الهمذاني والحريري.

وكان عنوان الفصل الرابع: الأبحاث العلمية، وفيه بيان لأهم خصائص البحوث العلمية، وبحث في أبرز ممثليها وكانت تجربة أبي حيان والمعري والغزالي أمثلة متميزة في هذا الفصل.

وفي الفصل الخامس ذكرٌ لأدب الرحلات والتاريخ والجغرافيا في هذه الفترة وتم بيان خصائص السفر والرحلات والفوائد التي تترتب عليها.

وفي الفصل السادس والأخير وعنوانه: نصوص للتحليل الأدبي، تم اختيار عدد من النصوص الأدبية للتحليل، وكانت النماذج في هذا الفصل متخيرة من كتابات ابن المقفع وابن طفيل وابن العميد وأبي العلاء المعري وابن جبير.

يتوجه هذا البحث إلى العناية بتحليل النص في الأدب العباسي بذاته مخاطباً القارئ المتذوق المتأمل بحقل الأدب عامة بهدف تنمية ملكته في تذوق النص الأدبي وتعميق قدرته على حسن تلقيه والتفاعل معه وصولاً إلى تحقيق فهم أفضل له.

ولما كانت القراءة المتأنية لأي نص أدبي تحقق لصاحبها الفائدة والمتعة، إذ تنكشف له رؤى الكاتب وعواطفه، في الوقت الذي تغذي فكره وتقوِّم لسانه وتهذب أساليب تعبيره، وبناءً على هذا حاولت اختيار النصوص التي تضم أشكالاً بلاغية ولغوية متنوعة، باعتبارها خزاناً لغوياً يثري مفردات المتلقي، ويربطه بحياته المعاصرة لمواجهة قضاياه، وحل مشكلاتها، فضلاً عن أنها تزيد من التزامه بانتمائه وتراثه المعرفي والأدبي.

على أنني آثرت أن لا أقف طويلاً عند النص واشبعه تحليلاً، بل اكتفيت بنظرات نقدية تهدف إلى إيضاح ملامح الكاتب والكشف عن خصائص فنه. وقصدي من ذلك أن أتيح للطالب أو القارئ قدراً من المشاركة في استكمال جوانب الدراسة وبخاصة ما يتصل منها بشرح ألفاظ النص واستخلاص ما ينطوي عليه من صور بيانية ومحسنات بديعية ونحو ذلك مما أصبح معهوداً في الدراسات المنهجية. وحرصت في الوقت نفسه على أن لا يكون النص منقطعاً عما قبله وما بعده، أو منفصلاً عما حوله من مؤثرات البيئة، وعوامل المكان والزمان، وغير ذلك مما يعد بمثابة المناخ الذي لا بد منه لتماسك أوصال العمل الأدبي.

لقد حاولت هذه الدراسة من خلال النماذج المدروسة أن تقدم اثنتي عشرة دراسة لنصوص عباسية، وذلك من خلال التعامل مع هذه النصوص على أنها تمتلك التميز والتفرد والخصوصية، إذ إنّ كل نص يحمل رؤية العالم الخاصة به، ورؤية العالم المتجسدة في النص تقتضي طبيعة البناء والتركيب.

وأما المجموعة النثرية هذه فتوخيت في اختيارها أن تمثل التيارات والمذاهب الفنية التي عرفها

الأدب العباسي، جمعتها من مختلف كتب الأدب لتكون لطالب الجامعة مرجعاً يرجع إليه في دراسته للعصر العباسي ولا أقول مصدراً يعود إليه.

وقد حاولت أن تمثل هذه المجموعة أبرز أنماط النثر العباسي من القصة والمقامة والتاريخ والرحلة منذ نشوئها حتى تكاملها، وتوخيت في اختيارها العودة إلى أوثق المصادر تحقيقاً وأوضح الأمهات شرحاً، وعمدت إلى أثر الأديب فاخترت من نصه نماذج تدل على أبرز خصائص أسلوبه، ورجعت في توضيح معاني الأديب ومقاصده إلى أوثق شروح آثاره، ليكون جماع هذه المجموعة مُعيناً لدارس الأدب العباسي على تكوين فكرة عن تيارات الأدب ومذاهبه واتجاهاته في ذلك العصر.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الحقبة الزمنية التي شغلها العباسيون زادت عن خمسة قرون، وأنّ الرقعة الجغرافية التي ضمتها الدولة العباسية وصلت أقصاها آنذاك، وأن تعدد الأمم والأجناس البشرية التي أسهمت في صنع تلك الحضارة أكثر من أن تحصى وتذكر، ولكنَّ ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، وحسبي أن أعطي اللمحة الدالة بما يسمح به منهج البحث، واترك المزيد لمن يستزيد.

وقد سلكت في الاختيار منهجاً ذا ركيزتين: جعلت الركيزة الأولى في ترجمة الأديب وأخباره، وجعلت الركيزة الثانية في المختار من نثره، والتزمت في كثير من الترجمات والأخبار التي تضمنتها الركيزة الأولى اقتطافها من كتب التراث، وعززت هاتين الركيزتين بثالثة جعلتها في الدراسة الأدبية للنص، لتكون هذه الركيزة الأخيرة معلمة تنير الطريق للباحث المتعمق.

وقد استعنت في سبيل إنجاز هذا العمل المتواضع بدراسات قويمة وتصانيف كثيرة، وكان خير ما عدتُ إليه كتاب *أمراء البيان* للأستاذ العلامة محمد كرد علي، وكتاب *الفن ومذاهبه في النثر العربي* للدكتور شوقي ضيف، ثم كان لا بد لي من الاستفادة من كتاب *تطور الأساليب النثرية* لأنيس المقدسي، مثلما استفدت من كتاب *النقد الأدبي الحديث* للدكتور محمد غنيمي هلال، وكتاب *المرجع في النثر العربي في العصر العباسي* للدكتور عبد اللطيف عمران.

والأسلوب الذي سرت عليه في معالجة النثر العباسي في هذا الكتاب هو أسلوب يكاد يكون فريدا من نوعه في الأوساط الجامعية العلمية في ايران، وما هذا إلا نتيجة لدراسة علمية آكاديمية في جامعتي دمشق السورية واليرموك الأردنية في إعدادي لنيل درجة الدكتوراه وأنا مدين لأساتذتي الكبار في هاتين الجامعتين العريقتين، وأخص بالذكر الأساتذة الاجلاء الأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف عمران، والأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن، والأستاذ الدكتور يوسف بكار، والأستاذ الدكتور موسى ربابعة، والأستاذ الدكتور بسام قطوس. وإنّ العرفان بالجميل يدعوني إلى أن اتوجه بخالص شكري وامتناني إلى أستاذي الفاضل الدكتور محمد علي آذرشب أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها «سابقاً» في كلية الآداب بجامعة طهران الذي منحني من حسن رعايته وتوجيهه وبذل لي من وقته وجهده وعطفه ما كان لي خير معين على مواصلة البحث والدراسة والصبر على ما واجهني من الصعاب والأزمات.

وأخص بالتقدير والشكر كل الإخوة والزملاء والأساتذة الذين أفادوني من قريب أو من بعيد في مناقشة رأي أو توضيح فكرة وما أكثر هؤلاء فلهم جميعاً من الله خير الجزاء.

وأخيراً:

فهذه محاولة متواضعة، وقد تتلوها محاولات لغيري، ولا أدعي إلا أنني حاولت، ولم أقل أنني أتيت بكل شيء، ولكن المحاولة أفادتني قبل أن أقدمها إلى غيري، وأرجو أن تستمر المحاولات الجادة لخدمة العلم والأدب.

وأما معالجة النصوص الأدبية ضمن إطار أسلوب خاص ومنهج فني متبع فظهر بشكل رسمي في نهاية القرن الثالث الهجري لدى الناقدين الكبيرين أبي الحسن الآمدي في كتابه *الموازنة* والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتابه *الوساطة بين المتنبي وخصومه*.

وقد اعتمد النقّاد المحدثون على مناهج نقدية عديدة في تحليل النص الأدبي وتقييمه، وعلى الخصوص النص الشعري، يمكن حصرها على النحو التالي: المنهج الأسطوري، المنهج البنيوي، المنهج الأسلوبي، المنهج النفسي، المنهج التاريخي، المنهج الفني، ومنهج علم النص وتحليل الخطاب.

والجدير بالذكر أنّ هذه الدراسة تنهض بمحاولة قراءة النص النثري العباسي من كونه نصاً له تفرده وتميزه، دون أن تقيد نفسها بمنهج من المناهج النقدية، وإنما حاولت أن تجعل النص خاضعاً لطريقة التحليل كما يفرضها النص نفسه.

المنهج الأسطوري

ترتبط الأسطورة دائماً ببداية البشر، حينما كانوا يمارسون السحر ويؤدون طقوسهم الدينية، وذلك سعياً وراء تفسير ظواهر الطبيعة، ولكن «ليفي برول» فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، ينفي ذلك ويرى أنها نشأت استجابة لعواطف الجماعة.[١]

والأسطورة أنواع منها: الأسطورة الطقوسية التي ارتبطت أساساً بعمليات العبادة، ومنها الأسطورة التعليلية، والأسطورة الرمزية، والأسطورة التاريخية.[٢]

والمنهج الأسطوري يحاول من خلال النص الكشف عن علاقة الإنسان بالكون، وما الأدب الجديد إلا صورة جديدة لهيئة قديمة موجودة في الاساطير التي انحدر منها الأدب سابقاً .

وتحدث العالم والكاتب البريطاني لويس سبنس عن العلاقة بين الشعر والأسطورة وذهب إلى أنّ «بعض أشكال الشعر الأولى، وربما أنقاها، نتاج مباشر لحلقات من الانطباعات الطبيعية في

١. *الأساطير*، أحمد كمال زكي:٤.

٢. *المرجع نفسه*:٤.

ذهن الإنسان، وعلى هذا فإنّ الشعر والأسطورة انبثاق من الطبيعة»[١].

والأدب الجاهلي قد عكس لنا حقيقة شياطين الشعراء، كما عكس لنا موضوع وادي عبقر الذي يسكن فيه الجن، كما حدثنا الشعرء أنفسهم في أشعارهم عن أسماء شياطينهم، «فلاحظ بن لاحظ» شيطان امرئ القيس، «وأبو مسحل» شيطان الأعشى، «وهبيد» شيطان عبيد ابن الأبرص، «وهادر» شيطان النابغة.

وأما أشهر الأساتذة الذين سلكوا هذا المسلك في دراسة الشعر الجاهلي فهم: أحمد كمال زكي، ومصطفى ناصف، وإبراهيم عبد الرحمن، وعلى البطل، وعبد الجبار المطلبي، ونصرت عبد الرحمن.

المنهج البنيوي

إنّ أصحاب هذا المنهج يدرسون العمل الأدبي بوصفه بناءً مستقلاً، وينحّون جانباً كلّ علاقة أو عامل آخر، فهم يذهبون إلى استقلالية البناء اللغوي، فالنص من خلال هذا البناء كافٍ في حد ذاته لفهم العمل الأدبيّ واستخلاص الوحدات الوظيفية التي تسيره وأصحاب هذا المنهج يهدفون إلى الوصول إلى الوحدات الوظيفية الأساسية، التي يمكن استخدامها في تحليل الأعمال الأدبية قديمها وحديثها على السواء على أنّ هؤلاء لم يتفقوا فيما بينهم على تحليل موحد، بل تختلف الوحدات التحليلية التي توصلوا إليها من دارس لآخر.[٢]

لم ينبثق المنهج البنيوي في الفكر الأدبي والنقدي وفي الدراسات الإنسانية فجأة، وإنما كانت له إرهاصات عديدة تخمرت عبر النصف الأول من القرن العشرين في مجموعة من البيئات والمدارس والاتجاهات المتعددة والمتباينة مكاناً وزماناً، لعل من أولها ما نشأ منذ مطلع القرن العشرين في حقل الدراسات اللغوية على وجه التحديد لأنّ هذا الحقل كان يمثل طليعة الفكر البنيوي، وإن لم تستخدم فيه منذ البداية المصطلحات البنيوية. وكانت أفكار العالم اللغوي السويسري الشهير دي سويسر هي المنطلق لهذه التوجهات.[٣]

ويمكن اعتبار «مدرسة الشكلية الروسية» الرافد الثاني من روافد البنائية، التي ازدهرت في العقدين الثاني والثالث، وكان انطلاقها من مجموعة من طلبة الدراسات العليا بجامعة موسكو ١٩١٥ وشكلت «حلقة موسكو اللغوية» وقد أقاموا نظرياتهم الجمالية على أساس كفاية الأثر

١. «الأسطورة والشعر العربي»، أحمد شمس الدين حجامي، *مجلة فصول*، مجلد٤، عدد٢، ١٩٨٤م، ص٤٣.
٢. *نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة*، نبيل إبراهيم:٥٨.
٣. *مناهج النقد المعاصر*، صلاح فضل:٨٥.

الفني في حد ذاته وقابليته لأن يشرح نفسه، والبحث عن لغة جديدة للفن.[١]

وأما أهم وأشهر الأساتذة الذين تصدوا لدراسة الشعر الجاهلي وطبقوا هذا المنهج في الدراسة والتحليل فهم: الدكتور كمال أبوديب، والدكتور عدنان حيدر، والدكتور يورسلاف سسكوفتش.

المنهج الأسلوبي

يعتمد المنهج الأسلوبي في دراسته للنص الأدبي على عدد من المعايير والأسس كالمعاني والبيان والبديع، والأسلوبية منهج مهم لما لها من رؤية عميقة للنص الأدبي إذ تتناوله بلاغياً وجمالياً ودلالياً. ويعد تشارل بالي أول مؤسس للأسلوبية وهناك نوع من التداخل والتخارج بين الأسلوبية والبنيوية على اعتبار أنّ الأسلوبية انبثقت من الفكر اللغوي والأدبي قبل الحركة البنيوية متأثرة بذات الاتجاهات التي أسهمت في تشكيل البنيوية.[٢]

المنهج النفسي

اعتمد هذا المنهج في تفسيره للأدب على النفس الإنسانية، وذهب إلى أنّ العمل الفني ليس إلا صورة من صور التعبير عن النفس، وأنّ الأديب في كل ما يصدر عنه من نشاط أدبي يستلهم تجاربه العقلية والنفسية.

وبدأ المنهج النفسي بشكل علمي منظم مع بداية علم النفس ذاته منذ مائة عام على وجه التحديد في نهاية القرن التاسع عشر بصدور مؤلفات فرويد في التحليل النفسي وتأسيسه لعلم النفس، استعان في هذا التأسيس بدراسة ظواهر الإبداع في الأدب والفن، كتجليات للظواهر النفسية، من هنا يمكن أن نعتبر ما قبل فرويد من قبيل الملاحظات العامة التي لا تؤسس لمنهج نفسي بقدر ما تعتبر إرهاصاً وتوطئة له، لكن المنهج ذاته يبدأ مع تكوين علم النفس، أو علم التحليل النفسي عند سيجموند فرويد.[٣]

المنهج التاريخي

يعد المنهج التاريخي أول المناهج النقدية في العصر الحديث، وذلك لأنه يرتبط بالتطور الأساسي للفكر الإنساني، وانتقاله من مرحلة العصور الوسطى إلى العصر الحديث،[٤] ويجعل من حوادث التاريخ السياسية والاجتماعية وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره وخواصه.

---

١. *الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً*، عفيف عبد الرحمن:١٩٩.
٢. *المرجع نفسه*:١٠٩.
٣. *مناهج النقد المعاصر*، صلاح فضل:٦٦.
٤. *المرجع نفسه*:٢٥.